

## تَكْتَبُونَ مَا تَرِيدُونَ، وَنَنْشُرُ مَا نَرِيدُ!

ميشيل كيلو

سمعتُ هذا القول لأول مرة في جريدة البعث. كنتُ قد كتبتُ مقالةً حول دور - أو ما كنتُ أتوهم أنه تقصير - السوفييات في الحرب الأهلية الإسبانية، أُعزّزَ به أدلتي على «تقصيرهم» في الحرب العربية/الإسرائيلية. فرفض رئيسُ تحرير الجريدة نشرَ المقالة، وقال رداً على تذكيره بحقي في أن أقول رأبي: «أنتم أحرار، تكتبون ما تريدون. ونحن أحرار، نُنشر ما نريد!»



ليست هذه هي الطريقة الوحيدة التي يستطيع الكاتبُ الرسميُّ السوريُّ أن يمارسَ بها حريته: - فهو يستطيع أن يكون حرّاً أيضاً في تبني أفكارٍ ليست له، يُدافع عنها من دون أن يكون مقتنعاً بها ومن دون أن يطالبه أحدٌ بذلك.

- ويستطيع الصمتُ عن أفكاره الحقيقية والخاصة، بل والتنكُّرُ لها بمناسبةٍ وبلا مناسبة. - كما يُقدر أن يكون حرّاً في الدفاع عن فكرتين متناقضتين يُعرفُ أنهما كذلك، «وفاق» على إحداهما لأنه سمعها من جهةٍ نافذةٍ ما، ثم «وفاق» على الأخرى، المعاكسةِ لها، لأنها صدرتُ عن جهةٍ أعلى من الأولى. - وهو حرٌّ كذلك في أن يُكذبَ على نفسه، تمهيداً للكذب على قرائه، كأن يرى وضعا تعاف نفسه عيوبه، أو يتعرفَ على فاسدٍ أو مرتشٍ ويشعرُ بالتقرُّزِ حياله، لكنه يكتب عن هذا كله بلغة متزلّفة مدائحية تجعل الوضعَ مثالياً والشخصَ نبيلاً، قافراً عن الحقائق إلى عالمٍ وهميٍّ هو نقيضها، يُعتبره هو الواقع، فيُعرفُ منه حالاتٍ وقصصاً يستعين بها في تزوير الحقيقة.



هذه الحريات كثيراً ما أوقعتُ ممارسيها في مطباتٍ مُحرّجة. فقد امتدَّح هؤلاء ربحاً من الزمن رئيسَ مصر الراحل أنور السادات، حليفَ النظام السوريِّ الإستراتيجيِّ بين عامي ١٩٧٠ و١٩٧٥ وأثناء حرب تشرين، وأُمنبوا في مديحهم، وأضفوا عليه أشكالاً من المبالغة والتحويل يصعب على العقل قبولها، وأثارت في حينه ضحك مَنْ كانوا يقرأونها لأنها جعلتُ منه مثلاً حياً للوطنية والقومية والتحرير. وفجأة، بدأ التفكُّكُ يدبُّ في العلاقات السورية - المصرية. وما إن صدرتُ أولُ إشارةٍ هجومٍ على السادات، حتى تحولتُ إلى خائنٍ أشيرُ ومجرمٍ ذميمٍ، لم يكن يوماً وطنياً أو قومياً أو مؤمناً بالتحرير.

وقد حدث مثل ذلك عام ١٩٧٨: فقد انقلب صدام حسين من عدوٍ للعرب يعمل مع الصهاينة، إلى ركن من أركان الصمود والتحرُّر العربيِّ، قبل أن يُرجع من جديد عدوًّا للأمة العربية ومسانداً للنضال الصهيونيِّ ضدَّ سورية - قلعة الصمود والتصدي.

ليس بين صفات الكاتب الرسمي عندنا أن يكون صاحب رأي، بل العكس هو الصحيح: يجب أن يكون كالمراة التي تُعكس ما يحدث، بغض النظر عن طبيعته. ليس مطلوباً منه أيضاً أن يكون صاحب دور في الأحداث العامة، التي يجب أن يتعامل معها ببرائنة تامة، لأنها في الواقع برائنة بالنسبة إليه، ولا تعنيه. لذلك، لا يسأله أحد عن رأيه فيها أو موقفه منها. كما تحظر عليه المشاركة في صنعها، ناهيك عن اتّخاذ موقف نقدي أو متحفّظ حيالها؛ فهذا ليس من وظائفه.

ألا يفسر هذا ظاهرة تردّي مستوى الكتابة عامة، والسياسية خاصة، وهروب القسم الأكبر من كتّاب الصحافة إلى السياسات الدولية وإلى الأدب والتحقيقات والنقد، حيث يوجد هامش حرية، ويُمكن للمرء أن يرتكب أخطاء صغيرة لا يحاسبه عليها أحد، خلافاً لحال الأقسام الأخرى حيث يتربص به ويرصد حركاته وسكناته خلق كثير، بينهم زملاء عمل، والسيدُ مُديره العام - حارس النظام الأول في وسيلة الإعلام، الذي لا يتردد في معاقبته والوشاية به، بل وتسليمه إلى «الجهات المختصة»، بحسب جسامه الخطأ المنسوب إليه، صحيحاً كان أو كاذباً؟! ◆ ◆ ◆

ومع أن هذه الأجواء لم تتغير، لأن النظام حافظ على بناه خلال العامين الماضيين، فإن ثمة تحسناً محدوداً تُمكن ملاحظته: فالיום، ليس وراء كل غلطة، مهما كان نوعها، مؤامرة أميركية؛ وليس خلف كل صورة لا تُعجب صاحبها قصد صهيوني؛ ولم تعد القيادة السياسية هدف أي كلمة في غير محلها. وفي المقابل، يتركز الانتباه على مراسلي وسائل الإعلام الأجنبية، الذين يخضعون لرقابة مشددة، ويتم استدعاؤهم إلى محادثات ومراجعات وجلسات تعارف في الوزارة أو لدى دوائر أمنية معينة. ◆ ◆ ◆

بعد قرابة أربعين عاماً من الحجز على العقول وكبت الحريات، يبدو دور الكاتب الصحفي، الموظف في وسائل الإعلام السورية، فقيراً ومحدوداً إلى أبعد حد. غير أنه يوجد بين الكتّاب عدد غير قليل من المثقفين الحقيقيين، الموهوبين والمبدعين.

فهل يأتي يوم يُنشر فيه هؤلاء تلك الكتابات، التي وضعوها لأنفسهم، فيظهر كم كان ضاراً بعقولنا، وبمجتمعا، وبدولتنا، ذلك الفصام القاتل الذي فرّض عليهم إكراهات امتصت نسيمة الحرية المنعش من حياتهم، فشوّهتها وخنقتهم؟

دمشق

ميشيل كيلو

كاتب سوري. تُرجم أكثر من ثلاثين كتاباً عن الألمانية في اختصاصات مختلفة. رائد مبادر ومؤسس في «الهيئة التأسيسية للجان المجتمع المدني». ومن أبرز الناشطين المؤثرين في حقل العمل العام